

المحاضرة الثالثة

التفاعلية الرمزية و الحركة الاجتماعية

يستند النسق النظري لتفاعلية الرمزية حول الحركات الاجتماعية على مكتسبات علم النفس الاجتماعي للقرن التاسع عشر ، وبشكل أدق هو مستلهم لحد بعيد من أطروحات جوستاف لبون حول قدرة الحشود على كسر الانضباط الفردي وتذويبه في روح الحشد. وسيتم هذا الاتصال الفكري بداية على يد **Robert Ezra Park** و تلميذه من بعده **Herbert Blumer** عالمان يعود لهما فضل إدماج السلوك الجمعي ضمن مصاف المواضيع المستحقة لشرعية البحث السوسيولوجي فيما بين الحرب العالمية الأولى و الثانية.

يتمثل موضوع علم الاجتماع حسب **هربرت إزرا بارك** في دراسة السلوك الجماعي الموجه بدافع مشترك ناجم عن التفاعل الاجتماعي. ويمكن تقسيم هذا السلوك إلى قسمين : سلوك مؤسساتي تتحكم فيه القيم و المعايير و آخر جمعي منفلت من هذه الأخيرة وخاضع بالدرجة الأولى للعواطف و الغرائز أو ما يفضل ان يطلق عليه **هربرت بلومر** ردود الفعل الأولية و التلقائية .

إن الحركات الاجتماعية وفقا لكلا الباحثين نوع من أنواع الصنف الثاني من السلوك الجماعي ، وبشكل أدق هي أحد اشكال السلوك الجمعي على غرار أعمال شغب ... الخ ، يبقى أن نعرف السبب وراء هذا التصنيف بالنسبة لكليهما. والبداية المناسبة ستكون بفهم مايقصدانه بالسلوك الجمعي وتحديد النوع الثاني منه.

يعرف **هربرت إزرا بارك** السلوك الجمعي على النحو الآتي: «إن السلوك الجمعي الذي استعمل سابقا لوصف كل وقائع حياة المجموعة ، قد حصر و لأهداف هذا الفصل في تلك الظواهر التي تبين بالطريقة الأكثر وضوحا و الأكثر أولية العمليات التي تفكك المجتمعات في عناصرها المكونة والعمليات التي سيتم من خلالها الجمع مرة أخرى بين هذه العناصر ، ضمن علاقات جديدة ومجتمعات جديدة».

المتأمل لهذا المفهوم سيقف على بعدين أساسيين لسلوك الجمعي في معناه الأكثر ضيقا عند **بارك**:

1. أنه سلوك يفكك الأنظمة الاجتماعية للمجتمعات ؛
 2. كما أنه سلوك يعيد بناءها على نحو جديد ليشكل أنظمة حياة اجتماعية جديدة.
- ومن دون شك تبدو العلاقة واضحة بين الحركة الاجتماعية والسلوك الجمعي، فالحركة الاجتماعية في الأساس سلوك جماعي يرمي إلى التغيير أنظمة الحياة الاجتماعية ، أي تفكيكها لتطرح صوراً بديلة عنها، أنظمة حياة جديدة تبنى على انقراض الأولى.

يبدأ السلوك الجمعي وفق **هربرت إزرا بارك** في صورة اضطراب اجتماعي «Social Unrest» و المقصود به حسبه ، هو نشاط ناجم عن كبت وحرمان استعدادات أساسية بالنسبة للإنسان أو ما يطلق عليه عالم النفس **Graham Wallas** الاستعدادات المحبطة (الأمن، التجربة الجديدة، الاعتراف، الاستجابة). و عليه تكون انطلاقا الحركات الاجتماعية في شكل إحباط لأحد الاستعدادات الأساسية للإنسان على غرار الحاجة للأمن الاقتصادي و الوظيفي على أن ذلك غير كافي ، إذا لبد ان يصبح اجتماعيا عبر عملية العدوى ، أي التفاعل الاجتماعي ، وهنا يأتي دور رد الفعل الدائري.

ويعرف ربرت إزرا بارك رد الفعل الدائري النحو الآتي: « الشكل الأولي لسلوك الجمعي يشير عادة إلى ما يطلق عليه الاضطراب الاجتماعي . يصبح الاضطراب الموجود اجتماعيا عندما ينتقل من فرد إلى آخر ، ولكن وبشكل أخص عندما يولد شيئا يشبه عملية الاتقياد في القطيع بحيث أن عدم الرضا الموجود عند (أ) ينتقل إلى (ب) لينعكس مرة أخرى نحو (أ) و ينتج رد فعل دائري كما وصف في الفصل السابق».

يشكل رد الفعل الدائري عملية لتفاعل بين مجموعة من الأشخاص ، و يتميز بكونه تفاعل تلقائي وعفوي تنكسر فيه قدرة الأشخاص على ممارسة الضبط الاجتماعي الذي كانوا يمارسونه على سلوكياتهم في الحالات العادية . وتجذر الإشارة كذلك إلى المنحى التصاعدي لشحنة مضامين التبادلات ، بحيث أن الإحباط أو الحرمان الذي تنطلق منه سلسلة التفاعل سيزداد بمقدار تناقله من شخص على آخر إلى أن يتكون للحشد أو الجماعة أو الجمهور موقف موحد نحو كيفية إزالة الإحباط أو الحرمان الذي انطلقت منه كل التفاعل . ووصول التفاعل الدائري إلى هذه الدرجة القصوى يعني حسب بارك استعدادهم المعنيين به لدخول في رد جماعي موحد، أو بالأحرى سلوك جمعي موحد تجاه ما ولد مشكل الإحباط وفي هذه اللحظة بالذات يصبح حركة اجتماعية وفقه.

وبهذا الحركات الاجتماعية عبارة عن سلوك جمعي نشأ عن طريقة آلية التفاعل الدائري المباشر والنفوي والعاطفي ، صفات تذكرنا من دون شك بموقف جوستاف لبون من الحشد بصفة عامة، وهو موقف يتماشى معه بارك على نحو شبه كامل عندنا نسمعه يقول ما يلي: «إن كل الحركات الاجتماعية تميل إلى ممارسة أو إظهار بشكل كبير أو صغير الصفات التي أعطاهها لبون للحشد».

يمثل تحول الحشد إلى حركة اجتماعية وفق بارك ميلادا لفكرة جديدة ، نظرة جديدة حول المنبه الذي أثار انتباهها. إن رد الفعل الدائري بمقدار ما يعطل الكبح الذاتي و يعزز الدوافع الجماعية بمقدار ما يخرج أعضاء المجموعة من التقليد الثقافي الذي كان يحكم تفاعلات أعضائها في الماضي.

أبرز الانتقادات لنظرية

لقد كانت التفاعلية الرمزية من المقاربات الأولى التي مهدت لدراسة الحركات الاجتماعية دراسة علمية وقدمت من دون شك مساهمة مهمة في التأسيس لهذا الحقل العلمي ، غير أنها لم تسلم من عديد الانتقادات التي وجهت إليها سنختصر كلامنا على أبرزها وأكثرها أهمية .

من بين المآخذ الرئيسية على التفاعلية الرمزية أن آلية التفسير البسيكو الاجتماعية (رد الفعل الدائري) لا تجربنا شيئا عن العوامل الخارجية (الأوضاع السياسية ، الاقتصادية ، الطبقيّة ، القمع الأمني، توفر الموارد المالية و الاجتماعية... إلخ) التي تساهم في خلق السلوك الجمعي.

في مكان آخر بنت التفاعلية الرمزية تصوراتها للحركات الاجتماعية على أدبيات علم النفس الاجتماعي لجوستاف لبون، و تحديدا على فكرة أن الحشد يفقد أفرادهم قدرتهم على التحكم الذاتي النقدي بفعل عوامل المنعة و العدى المشاعرية و الفكرية و التحريض، و بهذا المعنى تنشأ الحركات الاجتماعية كأحد أنواع السلوك الجمعي من التفاعل الغير عقلائي المتولد بين الناس.

إن هكذا طرح يعد غير مقبول بالنسبة لعالم الاجتماع الأمريكي Clark Mcphail ، لقد أظهرت الدراسات الميدانية أن الناس يحتفظون بقدر كبير من التحكم الذاتي و التفكير العقلاني أثناء التجمعات الحشدية ، لنرى ما يقوله في

هذا الصدد لقد أكد بلومر على حقيقة أن ظهور الاضطراب الاجتماعي ، و التشويش العام لسلوكات الروتينية يؤديان إلى فقدان المقدرة النقدية و التحكم الذاتي، إن مجموعة كبيرة من الأدلة تتحدى طريقة التفكير هذه، إذ بينت ثلاثة عقود من البحث على سلوك البشر أمام اضطراب بيئاتهم الاجتماعية مثل الأعاصير والفيضانات ، و الانفجارات ...الخ أن الناس يبقون محتفظين بذكائهم وقدراتهم على الحكم الذاتي، و على عكس ادعاءات بلومر من سمات هذه المواقف الإشكالية تعزيز التفكير النقدي للأفراد و السيطرة الهادفة على السلوك.